قراءة في ومضة "إحباط" لبسّام جميدة

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

الراوي في ومضات بسام جميدة المروية بضمير الغائب ينقل لنا جزءا من حياة شخصية تعيش لحظة صراع مع المجتمع أو لحظة مواجهة أو لحظة إحساس بالاغتراب عن البيئة التي تعيش فيها. ففي ومضة "إحباط" على سبيل المثال، يقول الراوي: "وقف شاب بالمقهى، تأمل وجوهاً متعبة.. دخان، صراخ، لامبالاة، عاد يبحث عن وطنه بمكان آخر". فنجد هنا نوعين من الشخصيات: شخصية الشاب الذي تبدأ به الومضة وشخصيات الوجوه المتعبة التي يجدها في المقهى الواقف ببابه. والتعب هنا لا يدل على الإرهاق المؤقت الناتج عن بذل مجهود بدني في عمل ما، وإنما هو تعب تراكمي يمثل محصلة حياة الإنسان في مجتمعاتنا العربية، هو تعب بمعنى أثر السنوات والوطأة أو الثقل الذي أحدثه هذا التراكم على عزيمة الإنسان وصحته وشبابه وجعله فاقدا لهم.

وهنا يبرز دور الشاب أو ملامحه في بداية الومضة، فالراوي هنا يعقد مقارنة غير مباشرة بين الشباب وهؤلاء المُتْعَبِين. ويحدد

الراوي ثلاث سمات أو أشياء تتعلق بهؤلاء المتعبين، وهي: الدخان والصراخ واللامبالاة. وهذه الأشياء ليست محايدة الدلالة أو لا تحتفظ هنا بدلالاتها المعجمية وحسب، وإنما هي متأثرة بسياق الومضة ككل ومتأثرة كذلك بملامح شخصيات الوجوه المتعبة.

فالدخان قد يرمز هنا لاحتراق "شباب" هذه الوجوه، بالإضافة إلى دلالته الأصلية المتمثلة في الدخان الناتج عن التدخين في المقهى.

والصراخ صراخ متبادل بين الوجوه الجالسة على المقهى، وكأن اقترانه بالتعب السابق في النص يدل على أن هؤلاء المتعبين خسروا صراعاتهم الكبرى في الحياة ولم يجدوا بديلا للتنفيس عن هذه الخسارة سوى باللجوء إلى صراعات حول ألعاب المقهى وجدالهم حول قضايا فائتة أو قضايا حالية بعيدة عنهم في الغالب كالصراخ الناتج عن الاختلاف حول تقييم مباراة كرة قدم على سبيل المثال.

وعندما ترد اللامبالاة أخيرة في هذه السلسة من الأسماء التي تدل على ما يراه الشاب في المقهى، لابد أن نرى فيها انعكاسا للسمتين السابقتين: احتراق الشباب والخلافات حول أشياء ليست لها علاقة بالتعب الوارد قبل ذلك، وكأن هؤلاء الأشخاص الذين "يقطنون" المقهى بما يوحي به من مقهى "المسنين" أو الموظفين الذين بلغوا سن

التقاعد قد استسلموا لخسارتهم معاركهم السابقة في الحياة أو لأثر السنوات عليهم وصاروا ينظرون إلى الدنيا بلامبالاة وكأنها لا تعنيهم في شيء أو كأنهم لا ينتمون لها.

وتأتي النهاية القصصية لتقي ضوءا كاشفا على كل ما ورد في الومضة من قبل، لتكشف لنا أن الومضة أيضا تجسد صراعا بين الأجيال، بين رؤية العالم لدى الشاب ورؤية العالم لدى رواد المقهى، بين جيل يرى أن الحياة أمامه ولابد أن يولّدها بيديه إذا لم يجدها وجيل يرى أن الحياة وراء ظهره، أنها تركته ومضت، وما على هذا الجيل الأخير – من وجهة نظر أفراده أو جماعاته – إلا أن يستسلم لهروب الحياة أو تسللها من بين يديه ويلتحف باللامبالاة كأن شيئا لا يعنيه. وربما كانت اللامبالاة هنا تعبير عن الفقد الشديد أو عن الحزن الذي يكتمه صاحبه ويرسم على وجهه علامات اللامبالاة بدلا منه.

كما أن النهاية القصصية تلقي الضوء على عنصر آخر من عناصر الومضة، ألا وهو مفهوم الوطن أو صورته، واستعمال الراوي لكلمة "آخر" يدل على أنه يرى في المقهى وطنا أيضا، ولكنه وطن سلبي، فاقد لمعناه، لا يؤازر الحياة، لا يدفع إلى البناء، يقضي على العزيمة والشباب.

ولذلك يسعى الشاب للبحث عن وطن آخر في مكان آخر داخل الحدود الجغرافية التي يُطلق عليها مجازا اسم الوطن. ونستشف من ذلك أن الوطن بالمعني الذي ينشده الشاب يتناقض مع دلالات التعب والدخان والصراخ والامبالاة. الوطن شباب متجدد يحتوي الجميع صغارا وكبارا ويعزز عوامل الحفاظ على الحياة داخلهم ويحفزهم للبناء وتحقيق الذات؛ الوطن لا يحرق عزيمة أبنائه ولا يقضي على شبابهم؛ الوطن لا يعني صراخَ أو بالأحرى تصارخَ الجميعِ على أتفه الأسباب، فهو يستطيع أن يحتوي الجميع ويضمهم في حضن واحد على تنوعهم واختلافهم وتوجهاتهم المتباينة؛ الوطن يقضي على اللامبالاة ويجعل الجميع يقبلون على الحياة باستبشار وعزيمة وانطلاق دون أن ينكسروا أو تتبدد أحلامهم سُدى.